الخلفيات التاريخية للرسالة إلى الفيلبيّين

الخوري نعمة اللّه الخوري
دكتور في لاهوت الكتاب المقدّس

مقدمة

كتب بولس رسالته الى أهل فيلبي وضمّنها عواطفه الحميمة ومحبّته التي يُظهرها إلى مراسليه الأعزاء على قلبه. لا يعرض الرسول في هذه الرسالة الخطوط العريضة لتعليمه كما فعل في الرسائل الكبرى، بل يكتفي بالتوجّه إليهم ببساطة ويكتب إليهم بمحبته الأبوية. سنتعرّف إلى هذه الرسالة من خلال إلقاء الضوء على تأسيس مدينة فيلبي، وكيفية إنشاء كنيستها بحسب كتاب الأعمال، ثمّ نشير إلى دور النساء، وظروف هذه الكنيسة، لنتطرّق بعد ذلك إلى مكان وزمان تدوينها.

أولا: مدينة فيلبي

بنى فيلبس الثاني، ملك مقدونية ووالد الإسكندر الكبير، مدينة فيلبي سنة ٣٥٨ ق.م.، وسمّاها على اسمه؛ اهتمّ الرومان بها بسبب موقعها الجغرافي؛ فالطريق الأغناطية التي تربط الشرق بالغرب كانت تمرّ فيها. سيطر الرومان على مقاطعة مقدونية عام ١٦٩ ق.م.، وأضحت فيلبي تحت السيطرة ذاتها؛ في تلك الحقبة، حدثت حروب داخلية هزّت الإمبراطورية الرومانية، وجرت معركة في سهل فيلبي عام ٤٢ ق.م.، انتصر فيها أوكتافيوس وأنطونيوس على قاتلي يوليوس قيصر؛ وبعد المعركة حوّل أنطونيوس المدينة إلى مستوطنة (أع ١٦: ١٢)، لذلك يكون المولود فيها مواطنًا رومانيًا. سكن قدامى الجيش الروماني وعدد من المهاجرين من إيطاليا في فيلبي، فأضحت المدينة تضمّ مزيجًا متعدّدًا من السكان، وهذا يعني أنه كانت توجد فيها ديانات وعبادات مختلفة حين وصل إليها بولس ورفيقه لأول مرة. لا شك أنّ أنقاض المدينة حاليًا تدلّ على المجد الذي عرفته في أوج عظمتها.

ثانيًا: تأسيس كنيسة فيلبي استنادًا إلى كتاب الأعمال

يخبرنا كتاب أعمال الرسل أنّ بولس بشّر كنيسة فيلبي حين مرّ بها في رحلته الرسولية الثانية في نهاية عام ٤٩ أو بداية عام ٥٠، وأقام هناك فترة وجيزة من الزمن؛ ترك الرسول ورفيقه سيلا آسيا وقصدا مقدونية إثر رؤية ليلية يقول فيها رجل مقدونيّ لبولس: "أعبر إلى مقدونية وأغثنا" (أع ١٦: ٩)، وكان عليهما أن يمرّا بمدينة فيلبي، وهكذا وصل الإنجيل إلى أولى المدن الأوروبية.

كانت بداية البشارة في فيلبي ناجحة ومثمرة، فتوجّه بولس إلى اليهود الذين كانوا يُشكّلون نسبة ضئيلة جدًا من السكان حيث لم يتجاوز عددهم العشرة، والبرهان على ذلك أنهم لم يبنوا مجمعًا بل كانوا يصلّون، يوم السبت، خارج المدينة قرب النهر، وهناك بشّرهم الرسول (أع ١٦: ١٣). لكنّ إقامة بولس في فيلبي انتهت بطريقة مأساوية لأنّ حكّام المدينة قبضوا عليه ورفيقه بعد أن أخرج الرسول روح عرّاف من امرأة جارية كانت تسير وراءهما، لأنّ

أسيادها كانوا يكسبون بسببها مالاً كثيرًا (أع ١٦: ١٦-١٨)؛ بعد خروج السجينين في الصباح من السجن بطريقة عجائبية اضطرًا إلى مغادرة المدينة.

تعدّدت زيارات الرسول إلى هذه المدينة، فمرّ بها ثانية في رحلته الرسولية الثالثة (١ كور ١٦: ٥؛ ٢ كور ٢: ١٣؛ ٧: ٥)، وقصدها للمرة الثالثة قبل توجّهه إلى أورشليم حيث وقع أسيرًا في قيصرية (أع ٢٠: ٦).

ثالثا: موقع النساء في مدينة فيلبي

لعبت النسوة دورًا ملحوظًا في كنيسة فيلبي، ونستطيع التعرّف إلى نشاطهنّ الرسولي استنادًا إلى كتاب الأعمال أو إلى الرسالة نفسها.

يؤكّد كاتب الأعمال أنّ أوّل مرتدّة إلى الإيمان في فيلبي هي امرأة اسمها ليديا (أع ١٦: ١٤)، آمنت بالبشارة الجديدة، فاعتمدت مع أهل بيتها، واستقبلت الرسولَين والمؤمنين في بيتها الذي أضحى كنيسة يجتمع فيه المؤمنون للصلاة. يبدو أنّ هذه المرأة كانت تجتمع مع عدة نسوة قرب ضفّة نهر، وهذه المجموعة من النسوة هي التي استمعت إلى بولس في أوّل نشاط تبشيريّ قام به في فيلبي. لا ندري لماذا امتنع بولس عن ذكر اسم ليديا في رسالته، إلى أهل فيلبي، في حين أنّ كتاب الأعمال يشدّد على دورها الأساسي في البشارة.

من ناحية أخرى، لم يهتمّ بولس في رسالته بذكر الجارية العرّافة التي يخبرنا كتاب الأعمال بوضوح أنها كانت تسير خلف بولس ورفيقه وهي تصيح: "هؤلاء الرجال هم عبيد الله العلي، يبشّرونكم بطريق الخلاص (أع ١٦: ١٧).

حين ختم بولس رسالته إلى أهل فيلبي، طلب من أفودية وسنتيخي أن تكونا على اتفاق في الرب (٤: ٢)، ولا يعطينا تفاصيل إضافية توضح دور تلك المرأتين؛ اسمهما متداول بكثافة عند اليونان، فاسم أفودية يعني "الطريق السهلة"، في حين أن اسم سنتيخي يعني "اللقاء". جاهدت تلك المرأتان مع بولس أثناء تبشيره فيلبي، ولكنّهما الآن بحاجة إلى وسيط يوفّق بينهما، لذلك يطلب الرسول من "صاحبه المخلص" (٤: ٣) أن يساعدهما لأنهما تستحقان العناية بسبب دورهما الإيجابي أثناء تأسيس كنيسة فيلبي.

رابعًا: ظروف كنيسة فيلبي استنادًا الى الرسالة

بعد رحيل الرسول عن فيلبي، ظلّ أهلها متعلّقين به؛ وحين عرفوا بوقوعه أسيرًا جمعوا المساعدات وأرسلوها مع أبفرديطس، فقبلها الرسول المسجون (٢: ٢٥- ٢٦)، مع أنه امتنع من قبول المساعدات التي قدّمتها الكنائس الأخرى، لأنه ما أراد ان يُثقّل على أحد (٢ كور ١١: ٧؛ ١ تس ٢: ٩)، وبمناسبة هذه الهبات كتب رسالته إليهم.

عرفت كنيسة فيلبي في غياب الرسول بعض الصعوبات والمشاكل؛ ويقول بولس في هذا الشأن:" أتمّوا فرحي بأن تكونوا على رأي واحد... لا تفعلوا شيئًا بدافع المنافسة أو العجب، بل على كلٍ منكم أن يتواضع ويعدّ غيره أفضل منه" (٢: ٢- ٣)، وهذه إشارة إلى وجود تنافس ومزاحمات داخل الجماعة.

تشير الرسالة إلى خصوم بولس (١: ٢٨) الذين يسمّيهم «الكلاب» و«العَمَلة الأشرار» (٣: ٢)، ويحذّر أهل فيلبي منهم لأنهم يعتمدون على الأمور البشرية، في حين أن الرسول يفتخر بالمسيح؛ يبدو أن هؤلاء الخصوم هم مسيحيون من أصل يهودي، لأن الرسول أثار موضوع الختان (٣: ٣) في معرض حديثه عنهم، فيتّهمهم أنهم يعتبرون أنفسهم كنماذج يجب الاقتداء بها، في حين أن بولس يقتدي بنموذج صليب المسيح (٣: ١٠). ربما طلب هؤلاء المتهودون من أهل فيلبي أن يختتنوا قبل دخولهم إلى المسيحية؛ وقد عرفت الكنائس الأولى هذه المشكلة، لاسيما في غلاطية، لذلك يؤكّد الرسول أنه فريسي، أصله عبراني، وقد اختتن في اليوم الثامن، وهو من سبط بنيامين (٣: ٥).

خامسًا: مكان وزمان تدوين الرسالة

كتب بولس رسالته الى أهل فيلبي حين كان مسجونًا، وهو يلمّح فيها مرّات عديدة إلى قيوده (١: ٧، ١٣- ١٤، ١٧)؛ أين كان بولس مسجونًا حين دوّن الرسالة إلى فيلبي؟ يخبرنا كتاب الأعمال أنّ بولس، إضافة إلى سجنه في فيلبي، وقع في الأسر في قيصرية فلسطين (أع ٢٣: ٣٣-٢٦: ٣٢) وفي روما (أع ٢٨: ١٦-٣١).

لا يمكننا أن نقبل باحتمال تدوين الرسالة أثناء أسر قيصرية الذي حدث حوالى العام ٥٩، لأنّ الرسالة تفترض وجود مراسلات متكرّرة بين الرسول وأهل المدينة؛ علم هؤلاء بأسره، فأرسلوا إليه المساعدات مع أبفرديطس، ثمّ مرض هذا الأخير وأشرف على الموت حين كان يهتمّ بالرسول المسجون، فطلب بولس من أهل فيلبي أن يتقبّلوه بفرح ليبعدوا عنه المرض؛ هذه الاتصالات المتكرّرة تفترض أن يكون بولس مسجونًا في مكان قريب نسبيًا من فيلبي، وبالتالي من المستبعد أن تكون قيصرية الواقعة في فلسطين مكانًا محتملاً لتدوين الرسالة.

من ناحية أخرى، تظهر في الرسالة عدة إشارات تساعد على الاعتقاد أنها دُوِّنت حين كان بولس مسجونًا في روما؛ يؤكّد الرسول في ١: ١٣ أنّ قيوده صارت معروفة في دار الولاية (بريتوريون) وهي كلمة ترتبط بالسلطات الرومانية، وقد استعملها العهد الجديد (مر ١٥: ١٦؛ مت ٢٧: ٢٧؛ يو ١٨: ٢٨، ٣٣)؛ كذلك يشير بولس في فل ٤: ٢٢ إلى خدم قيصر الذين يرسلون سلامهم إلى أهل فيلبي؛ هذه المعطيات تدفع الشراح إلى الاعتقاد أن الرسالة دُوِّنت في روما حين وصل الرسول إلى هناك بين العامين ٦١ و٦٢، ولكنّ الصعوبة لا تزال قائمة لأن روما تبعد حوالى ١٣٠٠ كلم عن مدينة فيلبي (مسيرة أربعة أو خمسة أسابيع)، وهذا يعني أن الاتصالات المتلاحقة والمتكررة بين الرسول ومراسليه هي غير ممكنة إذا كان الرسول مسجونًا في روما. ولا بد من الإشارة إلى أنّ الرسول يؤكّد في روم ١٥: ٢٣-٢٤ أنه ينوي الذهاب إلى إسبانيا بعد مروره في روما، وهذا يتعارض مع ما قاله الرسول في رسالته إلى فيلبي، إنه سيأتي شخصيًا ليزور هذه المدينة بعد نجاته من السجن (٢: ٢٤).

اقترح دايسمان عام ١٨٩٧ نظرية تدوين الرسالة إلى فيلبي حين كان بولس مسجونًا في أفسس؛ وبالفعل يلمّح بولس مرارًا عديدة إلى وقوعه في السجن قبل أسره في قيصرية وروما ويمكننا أن نعتبر، في هذا الإطار، أن ٢ كور ٦: ٥؛ ١١: ٢٣؛ روم ١٦: ٧ هي إشارات بعيدة تلمّح إلى أسر بولس. فلقد عانى الكثير أثناء إقامته في أفسس حيث صارع الوحوش (١ كور ١٥: ٣٢)، ودفعته الاضطهادات المتلاحقة هناك إلى اليأس وعدم الرغبة في البقاء على قيد الحياة (٢ كور ١: ٣- ٨).

يميل العديد من الشراح اليوم إلى الاعتقاد أن بولس دوّن رسالته إلى أهل فيلبي حين كان في أفسس القريبة من تلك المدينة والتي تبعد عنها مسيرة ثمانية أيام، وهذا يسهّل المراسلات بين بولس وأهل المدينة. كذلك نلاحظ تقاربًا لاهوتيًا بين تعليم فيلبي وتعليم الرسائل الكبرى، وبخاصة ٢ كور، وهذا يعني أن بولس دوّن فيلبي قبل هذه الرسائل (عام ٥٣-٥٤) أو بعدها (٥٦-٥٧).

خاتمة

رافق الألم والاضطهاد إقامة بولس الأولى في فيلبي، لذلك يُخبر الرسول التسالونيكيّين بشأن آلامه في فيلبي (١ تس ٢: ٢)، ويذكّر أهل فيلبي، في رسالته إليهم، أنّهم رأوا بأعينهم الاضطهاد الذي لحق به حين كان بينهم (فل ١: ٣٠)؛ يحمل بولس صليب المسيح في مهمته الرسولية، ويرفعه أمام المؤمنين ليحملوه في حياتهم اليومية، ويؤكّد أمام أهل فيلبي في ٢: ١٧ أنه يفرح إذا اقتضى الأمر أن يراق دمه ذبيحة مقرّبة في سبيل إيمانهم.